جامعـــــــــــــة بسكـــــــــرة

كليـــــــــة الآداب واللغـــــــات

قســم الآداب واللغة العربية

المحاضرة الرابعــة: الاختــلاف وانفتاح النص: تناسل المعنى

في مقياس التفكيكيات لطلبة السنة الثانية ماستر

شعبة: النقد الحديث والمعاصر

إعداد الأستاذ الدكتور: بشير تاوريريت

السنة الجامعية: 2020–2021

لقد رفض التفكيكيون مقولة وجود المعنى، وثاروا عليها وعلى أي مرجع يقول بأن المعنى حاضر وموجود، وفي مقابل ذلك قاموا بتغييبه وإرجائه، وجعلوه أمرا نسبيا، فاسحين المجال إلى القارئ كي يتحرر وينطلق في تأويلاته الخاصة ورؤاه الشخصية. وقد كان فهم ذلك من صميم عمليات النقد التفكيكي، خصوصا أن هذه الكتابة والنصوص تمثل نصوصا وكتابات أخرى متناصة، وتجتمع فيها أكثر من ثقافة، وأكثر من شخصية وأكثر من أسلوب، وبالتالي تحتمل أكثر من دلالة وأكثر من معنى.

غير أن الخطاب الأدبي المكتوب يبقى متميزا ومتفردا من كاتب لآخر وكذلك من قارئ لآخر، وإذا كان هذا الخطاب واحدا في صيغته أو شكله فإنه متعدد في قراءاته وتفسيره، وبالتالي يكون متعددا في معناه، وهو ما سعى التفكيكيون إلى تحقيقه من خلال مقولة الاختلاف، فالنص المكتوب مبني على أساس من الاختلاف بين أنماطه التي يتكون منها. وقد جاء دريدا بهذه المقولة في برنامجه التفكيكي ليهدّم ظاهرة التطابق مع الذات التي كرستها المركزية الغربية والتي من خلالها تحدد مرجعية مسبقة يستند إليها القارئ في تحصيل المعنى والوصول إلى الدلالة، إنه يقول بالآخر الغائب، المرجأ الذي يحفز القارئ الباحث على البحث والقراءة والمغامرة والغوص في النص "الذي لا يفتأ ينأى عن صيرورة الاختلاف"[1].

لقد حاول دريدا أن يدفع " بالوعي إلى تجاوز مبدأ الوحدة وظاهرة التطابق مع مقولاته"[2] من أجل تحقيق شيء من التحرر من التفرد والتميز والخروج عن سلطة النمذجة والاحتواء والتقوقع. وإذا ما توقف الدارس عند دلالة مصطلح الاختلاف اللغوية حسب ما ورد في المعاجم، وحسب وجهة نظر دريدا يجدها لا تخرج عن إطار التأجيل، والتغييب والإرجاء والتشتت، والبعثرة والانتشار، الشيء الذي يساعد على تعدد المعاني وكثرة والتأويلات والدلالات، وهو هدف التفكيكيين الأول من الخطاب الأدبي ومن الكتابة.

لقد كشف دريدا في كتاباته عن العديد من المصطلحات التي تعبر الدلالة المعجمية لمصطلح الاختلاف وأهم هذه الأفعال هي أفعال ذات خواص زمانية ومكانية "فثمة Todifer، وهو فعل أو مصدر يدل على عدم التشابه والمغايرة والاختلاف في الشكل

---

[1] عبد العزيز بن عرفة: (جاك دريدا) التفكيك والاختلاف المرجأ، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص72.

[2] المرجع نفسه، ص72.

والخاصية، وDifer وهي مفردة لاتينية توحي بالتشتت والتفريق والبعثرة، Todefer ويدل على التأجيل والإرجاء"[3]، وهي صفات تدل على الاختلاف في المكان والزمان، جعلها دريدا من خواص الخطاب الأدبي كذلك لتصبح دلالته مشتتة، ومختلفة من قراءة إلى أخرى ومن قارئ إلى قارئ آخر.

والاختلاف عند التفكيكيين مفهوم أنشئ على أنقاض الفلسفة الظواهرية الهوسرلية، التي تجعل العلاقة بين الأنا المتعالية، أي مقولات الميتافيزيقا، وبين الأنا الحية، أي الذات القارئة علاقة تطابق مما يجعل كل التفسيرات والتأويلات والمعاني نابعة من هذه الميتافيزيقا التي نقدها التفكيكيون. وقد علق دريدا على ذلك في كتابه "الصوت والظاهرة" قائلا :"فحياة المثال لا يمكن أن تتطابق أو تتماهى مع الحياة العادية أو العضوية، إذ أنها ليست إلا مجرد مسمى سرعان ما سوف ينزلق إلى معنى الصوت أو "الكلمة الحية" وسرعان ما سوف يصبح الشعور نفسه "إمكانية للصوت الحي" "[4].

لقد رفض التفكيكيون شفافية اللغة وذلك من خلال تأدية المعنى بسهولة وبطريقة مباشرة، وقالوا بغموضها وتأجيلها وإرجائها من حيث الدلالات التي تحملها، ومعنى ذلك أنهم جعلوا المعنى غير حاضر، وغير متحقق من خلال اللغة فقط ومن خلال قراءتها قراءة واحدة. والخطاب الأدبي عند التفكيكيين وحسب مقولة الاختلاف خطاب شاسع وعريض، خصوصا أن المسافة بين دواله ومدلولاته شاسعة كذلك. وهذه المسافة يزداد اتساعها في ظل مبدأ الاختلاف، الذي يوجد سواء في الكتابة أو في القراءة، فالاختلاف بكل معانيه يحيل إلى التعدد والكثرة والزيادة في التأويل والتفسير للنص الأدبي وهو هدف التفكيكيين.

إن القارئ الواحد يختلف عن غيره في الثقافة والتطلعات والتفكير والتفسير وحتى في الشخصية ذاتها، كما يمكن أن يختلف حتى مع نفسه فيعارضها، ويناقضها أحيانا، وينتج عن كل ذلك قراءات مختلفة ومتعددة وكثيرة للخطاب الواحد، الشيء الذي يجعله دائما محطة للبحث والتنقيب بغية الوصول إلى حقيقته، وفي ذلك تكريس لمقولة التعدد والتشتت. ويقوم مبدأ الاختلاف في استراتيجية التفكيك على معارضة شديدة بين الدلالات التي لا تقف عند حد معين، هذه الدلالات سرعان ما تظهر مع الدوال، لتغيب مرة أخرى داعية القارئ إلى

---

[3] عبد الله إبراهيم وآخرون: في معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص117.

[4] محمد على الكردي: الصوت والتفكيك عند جاك دريدا، مجلة علامات في النقد، ص112.

البحث عن غيرها.وهكذا يستمر غياب المعنى في النص الحاضر، ويستمر إرجاء الدوال في مدلولاتها، ليستمر القارئ بدوره في هدم النص وانتاجه مع كل قراءة جديدة.

إن سوسير يرى بأن اللغة مبنية على أساس من الاختلافات خصوصا وأن معنى المفردات والألفاظ إما قاموسي موضوع سلفا في المعجم وتتفق عليه جماعة اللغويين، وإما تركيبي يفهم من مجموع المعاني التي تتضمنها هذه التراكيب، أي أنه ينبع منها ويولد من خلالها، وهذا يعني أن الاختلاف يكون في الفونيمات، تلك الوحدات الصغيرة المكونة للخطاب الأدبي[5].

وإذا كانت اللفظة الواحدة تحمل في جوهرها كتلة من الاختلافات الدلالية فإن المعنى يكون مختلفا كذلك، والاختلاف يحقق التعدد وفي التعدد نفي للمحدود وإثبات للمطلق البعيد المرجأ، ومن هنا كان نقض المركزية ونقض المرجعية التي رفضها التفكيكيون في تحصيل المعنى، معنى النص الذي يمثل جملة كتابات متناصة ومختلفة في نسق خاص بكاتبها، تنشد اللامحدود من الدلالة من التفاسير وتتطلع إلى البعيد الغائب من المعاني. وقد عبر تيري ايجلتن (Tiry Ijlten) عن المعنى الغائب المرجأ، المختلف بقوله: "إن المعنى غير موجود في الإشارة اللغوية ما دام معنى الإشارة اختلافها عن الإشارة الأخرى، فإن معناها أيضا وبتعبير آخر غائب عنها، المعنى إذا شئت مبعثر ومنتشر عبر كل سلسلة الإشارات، وليس من السهولة تثبيته فهو ليس موجودا بصورة كاملة في أية إشارة لوحدها بل إنه يمثل حالة من الوجود والغياب المستمرين"[6]، وهذا يعني أن اللغة وبوصفها بنية من الاختلافات فإنها سرعان ما تحيل إلى معنى محدد، لتهدمه مرة أخرى وتحيل إلى غيره، وهو معنى يظل القارئ يطارده يلوح له حينا ويختفي حينا آخر، وبذلك تحدث استمراريته، هذه القراءة التي أصبحت بمثابة "عمل شاق، تسعى إلى إيجاد الائتلاف في الاختلاف"[7].

لقد أصبح المعنى حسب التفكيكيين في رحلة غياب مستمر، لا يعرف محطة يتوقف عندها، ولن تتمكن أي قراءة من الوصول إليه خصوصا في ظل مقولات التفكيك التي تجاوزت فكرة حضوره من خلال نظام الاختلاف، الذي غيب أية مرجعية يرتكز عليها القارئ

---

[5] ينظر: شجاع مسلم العاني: المغايرة والاختلاف، دراسة في التفكيك، مجلة علامات في النقد، ص183.

[6] شجاع مسلم العاني: المغايرة والاختلاف، دراسة في التفكيك، مجلة علامات في النقد، ص184.

[7] عبد الله محمد الغذامي: المشاكلة والاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص19.

للوصول إلى المعنى. والتفكيكيون بهذا الدأب عملوا على تحطيم المعنى الذي ينتج عن القراءة الأولى للنص الأدبي، وطالبوا القارئ بقراءات لا نهائية، فقد انهارت سلطة المؤلف وفتح الباب للقراءة فقط لتكون هي الأخرى انتاجا قابلا بدوره للقراءة والمطاردة.

لقد كان القارئ في ظل مقولات المركزية الغربية التي مجدت العقل والصوت وأخذت بفلسفة الحضور، مجرد مستهلك للكتابة، يسيطر عليه المعنى الحاضر فيها: بمعنى أن قراءته هي مجرد بحث بسيط وواضح على مدلول محدد، بمجرد ما يصل إليه، ويكون مجرد معنى ابتدائي يكون دوره قد انتهى، بينما دريدا وغيره من التفكيكيين قد حاولوا تحويل النص الأدبي إلى سيل من الدوال لتتحول مدلولاتها كذلك إلى سيل من التأويلات اللانهائية، حيث يكون توالد المعنى مستمرا، وتتحول بذلك الكلمة الحاضرة والمجسدة بفعل الكتابة في النص، إلى أخرى غائبة عنه، وهذا ما يجعل المعاني غير ثابتة وغير مستقرة، معان مؤجلة ضمن نظام الاختلاف.

هكذا جعل التفكيك مسيرة معنى الخطاب، مسيرة شاقة طويلة، غير منتهية بفعل مباعدة بين الدال والمدلول، الشيء الذي وسع نطاق اللعب الحر وكرس مقولة لا نهائية الدلالة. وإذا كان الدال قد خضع لسلطة الحضور، كونه يمثل التصور العيني والشكلي للعلامة، فإن المدلول قد تحرر من هذه السلطة ومن هيمنتها، ولو أنه لم يحدد ليبقى في حالة إرجاء وتغييب انطلاقا من الاختلافات.

إن القراءة التفكيكية قد راعت هذه المقولة وانطلقت منها في كشف جماليات النص الأدبي، إنها قراءة "تعتمد استراتيجية الاختلاف، فهي تكتفي بالإشارة إلى ما يتجاوز حدود النص، إنها لا تختزله بل تنبه إلى هذا الفائض الذي لا يستوعبه إدراك ولا يشمله نسق... لأنها نشدان الآخر والبحث عنه دون توقف ودون اعتبار للإمكانيات التي في حوزتها، لأن التواصل مع هذا الآخر هو دائما تواصل مرجأ(...) ولأن الآخر لا يدجن ولا يختزل ولا يمكن احتواؤه، فهو لا يحضر تماما في الوعي بل يبقى جانب منه غائبا"[8].

إن الاختلاف كما يعبر عنه صلاح فضل: هو تغييب مرجعية القيم وتبديل مفاهيمها بحيث تصبح علاقات الإسناد في اللغة ملغاة ولا معنى للربط بين الكلمة والمعنى الذي ترمز أو تشير إليه، فالحضور الذي يرمي إليه الفلاسفة الغربيون يحمل في جوفه معنى آخر

---

[8] عبد العزيز بن عرفة: (جاك دريدا) التفكيك والاختلاف المرجأ، مجلة الفكر العربي المعاصر، ص73.

غائب عن النص ليأتي به القارئ ضمن إمكانات التفسير لتبقى المدلولات الأخرى تنتظر الإشارة وهنا يتحقق معنى التأجيل والإرجاء[9]. ويعبر تيري إيغلتن عن هذا الاختلاف بقوله: "إن المعنى غير موجود في الإشارة اللغوية ما دام معنى الإشارة اختلافها عن الأشياء الأخرى، فإن معناها أيضا وبتعبير آخر غائب عنها، المعنى إذا شئت مبعثر ومنتشر عبر كل سلسلة الإشارات وليس من السهولة تثبيته، فهو ليس موجودا بصورة كاملة في أية إشارة وحدها، بل إنه يمثل حالة من الوجود والغياب المستمرين"[10].

إن ما نفهمه من هذه النصوص هو أن كل إشارة لغوية تحيلنا إلى معنى معين سرعان ما يغيب ليحل محله معنى آخر ويستمر المعنى في تشظي دائم دون أن نملك القدرة على تثبيته وإعطاء النص معنى نهائي، فالمعنى في النص في غياب مستمر والدوال التي تأتي بها للتعبير عنه هي بمثابة إرجاء له.

ويعرف محمد عناني ثنائية الحضور/الغياب بقوله: "وأما الإرجاء فهو عكس الحضور، أي إننا حين نعجز عن الإتيان بشيء أو بفكرة فنحن نشير إليها بكلمة، ومن ثم فإننا نستخدم العلامات مؤقتا ريثما نتمكن من الوصول إلى الشيء أو الفكرة، وعلى هذا فإن اللغة هي حضور مرجأ للأشياء أو المعاني ولا يمكن إذا افتراض حضورها في اللغة"[11]. لكن هذا المعنى المرجأ هو في غياب مستمر ولن يتحقق جزئيا إلا إذا قرن بالحضور، وذلك عن طريق اللعب الحر ولا نهائية الدلالة. إن الإرجاء أو التأجيل يحقق المعنى الممكن لكنه غير ممكن في اللحظة الحاضرة، وعلى حد تعبير إيغلتن:"أن اللغة مسألة أقل ثباتا مما تصورها التركيبيون الكلاسيكيون"[12]، فقد اعتقدوا بشفافيتها من خلال مطابقة اللفظ للمعنى (الدال والمدلول).

ولعل هذا ما أشار إليه عبد العزيز حمودة في كتابه "المرايا المقعرة" من خلال المثال التوضيحي إذ أن حضور الدال أو اللفظ لا يعني حضور المعنى أو المدلول، فقولنا: ضرب محمد زيدا، هو جملة تامة المعنى يصح السكوت عليها، من وجهة نظر اللغويين التقليديين،

---

(9) صلاح فضل: أساليب الشعرية المعاصرة، ص260.

(10) شجاع مسلم العاني: المغايرة والاختلاف –دراسة في التفكيك، مجلة علامات في النقد، ص184.

(11) ينظر:عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، مطابع الوطن، الكويت، ط1، 2001، ص126.

(12) شجاع مسلم العاني: المغايرة والاختلاف، دراسة في التفكيك، ص184.

لكنها لا تعود كذلك مع دريدا والتفكيكيين، إذ لا يتضح معنى الضرب فورا، بل يعلق بانتظار إشارات أو ألفاظ أخرى، إذ يمكن أن تكون الجملة السابقة (ضرب محمد زيدا في الكرم) أو (ضرب محمد زيدا في أهم مشروعاته التجارية)، فمعنى الضرب هنا مؤجل نحاول تثبيته من خلال الفعل (ضرب) ثم نستمر في استحضار المعنى الغائب عبر صيرورة الاختلاف[13].

إن مسيرة المعنى في الخطاب –حسب التفكيكيين– مبنية على الاختلاف، فهو يقوم بوظيفة مهمة جدا في تحقيق المعنى الذي يستمر في الغياب ويرفض هيمنة الحضور. إنها صيرورة لا تقول إلا بالآخر، بالشيء المغاير (اللاشيء) الذي يستعصي الوصول إليه؛ لأنه يمثل إحدى إمكانيات الغياب وفي هذا تأجيل وإرجاء . وتمضي هذه العملية إلى ما لانهاية كما لو أن كل دال يتحول إلى نوع من الحرباء التي تبدل ألوانها مع كل سياق جديد لتصبح القراءة في هذا المعنى دائمة البحث والاستكشاف في أفق الاختلاف.

[13] شجاع مسلم العاني: المغايرة والاختلاف، دراسة في التفكيك، ص185.